﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾

[الحجّ: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـــرّبـــطُ بين وعيدِ الكافرين بسـوءِ المصيرِ والـتّـخـويـفِ بحَدَث السّاعةِ الخطيرِ

بعد أنِ اختُتِمت السّورةُ السّابقةُ بالتّرهيبِ القارعِ مِنَ الفزع الأكبرِ، وأنّه لا مندوحةَ مِن إنهاءِ هذه الدّنيا، بما توعّدَ اللّه به البشرَ مِن طيِّ السّماء، وإتيانِ ما يوعَدون، والدّينونةِ بما يَستحقّون، وكان أعظمَ ذلك المتوعّدِ به يومُ الدّينِ، حيثُ يكونُ الحُكْمُ بالحَقّ للرّحمن، المُستعانِ على كلّ ما سواه، افتُتِحت سورةُ الحَجّ بنداء النّاسِ كافّةً؛ لإخبارِهم بما ينتظرُهم مِن هولٍ عظيمٍ، يجدرُ بهم قبلَه أن يتّقوا ربَّهم المُنعِمَ عليهم بسوانحِ الرّبوبيّةِ، وكمالِ العطايا العُلْويّةِ؛ لأنّه تعالى هو الملجأُ الوحيدُ مِن كُلِّ عذابٍ شديدٍ، على اعتبار أنّ التّقوى مُنجيَةٌ مِن هول ذلك اليوم، في إشارةٍ إلى الحذرِ الأكيدِ، مِن يوم الوعدِ والوعيدِ، وذلك بأن يَجعلوا بينهم وبينَه وقايةً مِنَ الطّاعات، فهي أكبرُ حمايةٍ، وأضمنُ نجاةٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّاسُ﴾: (أنس) أصْلٌ واحِدٌ، وهو ظُهورُ الشَّيْءِ، وكُلُّ شَيْءٍ خالَفَ طَريقَةَ التَّوَحُّشِ، قالوا: الإنْسُ خِلافُ الجِنِّ، وسُمّوا لِظُهورِهِمْ، يُقالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إذا رَأيْتُهُ، قالَ تَعالَى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ [النّساء: 6]، ويُقالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إذا سَمِعْتُهُ، وهَذا مُسْتَعارٌ مِنَ الأوَّلِ، والأُنْسُ: أُنْسُ الإنْسانِ بِالشَّيْءِ إذا لَمْ يَسْتَوْحِشْ مِنْهُ[2]، والمعنى المحوريُّ الّذي تدورُ حولَه هذه المادّةُ اللّغويّةُ: الأُنْسُ والأُلفةُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 01.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنس).

كونُ الشّيء في وسَطٍ مُجانسٍ أو مُشاكلٍ له يظهرُ منه: كإنسان العين في وسَطها يُرَى، و(النّاس) اسمُ جمعٍ للإنسان، كقومٍ ورهطٍ، وأصلُه (أناس) حُذفت همزتُه بعد دخول (ال) عليها لكثرة الاستعمالِ، ثمّ استمرّ الحذفُ بعد حذف (ال)[1]، والمرادُ بالنّاس في الآية جميعُ المكلّفين، مؤمنِهم وكافرِهم، ذكَرِهم وأُنثاهم.

2) ﴿زَلْزَلَةَ﴾: (زل) - المكرّر - أصْلٌ مُطَّردٌ مُنْقاسٌ في المُضاعَف، وكَذلِكَ في كُلِّ زاءٍ بَعْدَها لامٌ في الثُّلاثي، وهَذا مِنْ عَجيبِ هَذا الأصْلِ، تَقولُ: زَلَّ عَنْ مَكانِهِ زَليلًا وزَلًّا، والماءُ الزُّلالُ: العَذْبُ؛ لِأنَّهُ يَزِلُّ عَنْ ظَهْرِ اللِّسانِ لِرِقَّتِهِ، والزَّلَّةُ: الخَطَأُ؛ لِأنَّ المُخْطِئَ زَلَّ عَنْ نَهْجِ الصَّوابِ، وتَزَلْزَلَتِ الأرْضُ: اضْطَرَبَتْ، وزُلْزِلَتْ زِلْزالًا، والمزَلَّةُ: المَكانُ الدَّحْضُ[2]، والمعنى المحوريُّ: انزلاقٌ عن الموضع لاستوائه مع ملاستِه التّامّة، كما يُزْلَقُ عن الحجارة المُلْس، ومِن كنائيّ ذلك ومجازِه: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النّحل: 94]، ومِن المعنى الأصليِّ: "زلزل الشّيءَ: حرّكه شديدًا، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزّلزلة: 1]، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: 214]: خوفو وحُرِّكوا، ومِنَ الزلزلة: شدّةُ التّحريك، وتكونُ في الأشخاص والأحوالِ[3]، والتَّزَلْزُلُ: الاضطرابُ، وتكريرُ حروفِ لفظِه تنبيهٌ على تكرير معنى الزّللِ فيه[4]، والمرادُ بزلزلة السّاعةِ ذلك الاضطرابُ الكونيُّ الَّذي يكون بين يدي السّاعةِ.

3) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: السّينُ والواوُ والعَيْنُ، يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرارِ الشَّيْءِ ومُضيهِ، مِنْ ذَلِكَ السّاعَةُ سُمّيتْ بِذَلِكَ، يُقالُ: جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسواعٍ، أيْ: بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ[5]، والمعنى المحوريُّ الّذي تدورُ حوله مادّةُ: (سوع) أو (سيع)، تسيُّبُ مرورٍ خلالَ أثناءٍ ضامّةٍ بلطفٍ، أي: في غير عنفٍ، ومِن هذا المُرور، جاءتِ الدّلالةُ على الامتداد المكانيِّ: السّاعة: البُعْد، ثمّ على الامتداد والمُرورِ الزّمنيّ المَحدودِ، السّاعةُ: جزءٌ مِن أجزاء اللّيل والنّهار، وأُطلقت على القيامة باعتبارها الأمَدَ أو غايةَ المُهْلة الّتي أُمْهِلها النّاسُ على الأرض، ﴿*إِلَيْهِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلّ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (زلّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (زلّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).

﴿يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ [فصّلت: 47]، وسائرُ ما جاء منَ التّركيب من لفظِ (ساعة)، فهو بمعنى القيامةِ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستهلالُ بأمرِ النّاسِ بالتّقوَى توقّيًا لأحداثِ الزّلزلةِ العُظمى

يُنادي اللّهُ المُكلّفين مِنَ النّاس ذكورِهم وإناثِهم، مُؤمنِهم وكافرِهم، مُعاصِرين لنزول الوحي أو بعدَه، إلى يوم القيامة، بأنِ اجعلوا لأنفسكم وقايَةً وحمايةً، مِن عذاب ربّكم الشّديدِ، وذلك بالالتزام بما أمركم به، والانزجارِ عمّا نهاكم عنه، مُعلّلًا ذلك بأنّ زلزلة السّاعةِ المُفجعةَ، وأهوالَ يومِ القيامة الواقعةَ، شيءٌ عظيمُ الخطر، مُنبئٌ عن مَجيءِ الوعد الحقِّ، حيثُ تُحاسبون على أعمالكم، وتُجْزَون عليها، جزاءً وِفاقًا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ النّداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

ندا‌ءُ الله تعالى للمؤمنين إنزالٌ للقريب منزلةَ البعيدِ للتّنبيه والتّوكيدِ

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ورد النّداء بـ (يا)، الّتي لم يأت غيرُها مِن أدوات النّداء في القرآن الكريم، وقد قال عنها النّحويّون: إنّها تأتي لنداء البعيد حقيقةً أو حُكمًا، وقد يُنادَى بها القريبُ توكيدًا، وزعم بعضُهم أنّها تستعملُ في نداء القريب والبعيد على حدٍّ سواء[3]، فإذا كانت لنداء البعيد - كما هو الأغلبُ عند النّحويين - فإنّ لاستعمالها في نداء القريب أغراضًا بيانيّةً حريٌّ أن يُتنبَّه إليها، يقول صاحبُ الكشّاف: "و(يا) حرفٌ وُضِع في أصله لنداء البعيد، صوتٌ يهتف به الرّجلُ بمَن يُناديه، وأمّا نداءُ القريب، فله أي والهمزةُ، ثمّ استُعمل في مناداة مَن سها وغفلَ، وإن قَرُب؛ تنزيلًا له منزلةَ مَن بَعُدَ، فإذا نودي به القريبُ المُفاطِن، فذلك للتّأكيد المُؤْذِن

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (سوع).
(2) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 6/ 1174.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/ 429.

بأنّ الخطاب الّذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا، فإن قلتَ: فما بال الدّاعي يقول في جُؤاره: يا ربّ، ويا اللّه، وهو أقربُ إليه مِن حبل الوريد، وأسمَعُ به وأبْصَرُ؟ قلتُ: هو استقصارٌ منه لنفسه، واستبعادٌ لها مِن مظانّ الزُّلفَى، وما يُقرّبُه إلى رضوان اللّه، ومنازلِ المُقرّبين، هضمًا لنفسه وإقرارًا عليها بالتّفريط في جنبِ اللّه، مع فرطِ التّهالك على استجابة دعوتِه، والإذنِ لندائه وابتهالِه"[1]، ونداءُ اللّهِ تعالى للمؤمنين لا يُتصوّرُ فيه إلّا أن يكون مِن إنزال القريبِ منزلةَ البعيد، ليتنبّهوا ولا يَغفلوا، وهو مظهرٌ مِن مظاهر التّوكيدِ، وقد يُقصدُ بهذا النّداءِ التّنبيهُ على أنَّ ما يَعقبُه أمرٌ خطيرٌ يُعتنى بشأنِه[2].

نُكْتَةُ استعمالِ (أيْ):

تأكيدُ المُنادَى؛ مـــزَّةً باعـتـبـارِ الأصالةِ وأخرى بـالـبَـدلـيّـةِ أوِ الصّفةِ

هناك توكيدٌ مِن نوعٍ آخرَ في استعمال (أيّ)، الّتي قالوا عنها: إنّها تأتي في حالات محدّدةٍ؛ منها: أن تكون وصلةً لنداء المُعرَّف بـ (أل)[3]، إذ إنّنا لا يصحُّ أن نقول: يا الرّجلُ، بل: يا أيّها الرّجلُ، وعلى هذا فإنّهم يُعربون (أيّ) في قولنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ على أنّها منادَى مبنيٌّ على الضّمّ في محلّ نصبٍ، ويُعربون: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بعدَها على أنّها بدلٌ منها، أو صفةٌ لها، أو خبرٌ لمبتدأ مرفوعٍ[4]، فهنا مظهرٌ آخرُ مِن مظاهر التّوكيدِ في ذكْرِ المُنادَى مرّتين.

نُكْتَةُ استعمالِ حرفِ التّنبيه في السّياقِ:

التّـنـبـيـهُ مُستوعِبٌ لكلّ فئاتِ النّاس؛ لعمومِ إطلاقِه في الأساسِ

هناك مظهرٌ آخرُ مِن مظاهر التّوكيدِ في هذه الجملة، في مَجيء (الهاء) الّتي قالوا عنها: إنّها تأتي للتّنبيه، على أنّها نعتٌ آخرُ للمُنادَى؛ لأنّه هو المقصودُ بالنّداء[5]، والتّنبيهُ لفتٌ للنّظر، وإشعارٌ بأهميّة السّياقِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 121.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 58.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 92.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 1/ 185 - 186.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/ 402.

ومضمونِه، يَطالُ المُكلّفين مِنَ المخاطَبين بالنّداء، ويُمهّدُ للبدل الّذي يُقصَد بالنّداء مِنَ النّاس جميعًا، حتّى ينتبَه الغافلُ، ويتوبَ النّافرُ، ويتداركَ العاثِرُ، ويؤمنَ الكافرُ، وكلُّ هؤلاء مخاطَبون بالنّداء والتّنبيه.

دلالةُ تتابعِ المؤكّدات في النّداء المَسوقِ:

غـرضُ تـتـابُـعِ المـؤكّـدات فتحُ الـقـلـوبِ لـما هو آتٍ

فظهر بذلك أنّ هذا التركيب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، قد حُفَّ بسلسلة مِنَ المؤكّدات الّتي تَسترعي عند سماعها، أن تُصغيَ لها بأذنك، وتفتحَ لها قلبَك، وتستعدَّ بعدَها لتلقّي أمرٍ أو نهيٍ مِنَ اللّه سبحانه وتعالى، يقول صاحبُ الكشّاف: "فإنْ قلت: لم كُثُرَ في كتاب اللّه النّداءُ على هذه الطّريقة، ما لم يكثرْ في غيره؟ قلتُ: لاستقلالِه بأوجُهٍ مِنَ التّأكيد، وأسبابٍ مِنَ المبالغة: لأنّ كلّ ما نادى اللّهُ له عبادَه مِن أوامره ونواهيه، وعظاتِه وزواجرِه، ووعدِه ووعيدِه، واقتصاصِ أخبار الأُمم الدّارجةِ عليهم، وغيرِ ذلك ممّا أنطقَ به كتابَه أمورٌ عظامٌ، وخطوبٌ جِسامٌ، ومعانٍ عليهم أن يتيقّظوا لها، ويَميلوا بقلوبهم وبصائرِهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضتِ الحالُ، أن يُنادَوا بالآكِدِ الأبلغِ"[1].

بيانُ المَقصودين بالنّداءِ في مطلعِ السّورة:

الـخـطـابُ يَـعُـمّ جـمـيـعَ المكلّفين بطريق التّغليبِ

يقولُ الآلوسيُّ عنِ النّداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: "خطابٌ يعمُّ حكمُه المُكلّفين عند النّزول، ومَن سينتظمُ في سِلْكِهم بَعْدُ مِنَ الموجودين القاصرين عن رُتبة التّكليف، والحادِثين بعد ذلك إلى يوم القيامة، لكن لا بطريق الحقيقةِ عندنا، بل بطريق التّغليب، أو تعميم الحُكم بدليل خارجيّ؛ فإنّ خطابَ المُشافهة، لا يتناولُ مِن لم يكلَّف بعدُ، وهو خاصٌّ بالمكلّفين الموجودين عند النّزول، ولا خِلافَ في دخول الإناث، والدّخولُ هنا عندنا بطريق التّغليب"[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 90.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 106.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

أغلبُ ما يكونُ خطابُ النّاس لعمومِ البشرِ مِن كلّ الأجناس

أفاد تعريفُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا الاستغراقَ لكلّ مَن يصلحُ أن يُطلق عليه لفظُ إنسان، فهو يعمُّ ويستغرقُ كلَّ مَن يصلحُ للتّكليفِ في العُرفِ الشّرعيِّ، وقد أشار ابنُ عبّاس ﷺ، إلى أنّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابٌ لأهل مكّة الّذين خالفوا النّبيَّ الأكرمَ ﷺ وناوشوه، وأنّ (يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا)، هو خطابٌ موجّهٌ لأهل المدينة، وهو هنا خطابٌ عامٌّ لسائر المكلّفين.

ويوجَّه قول ابن عبّاس ﷺ على أنّه أكثريٌّ لا كُلّيٌّ، وعِلّةُ ذلك؛ أنّ البقرة والنّساء والحُجراتِ، سورٌ مَدنيّة وِفاقًا، وقد أورِد في كلٍّ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فدلّ ذلك على عدم اطّرادِ القاعدة في هذا المجالِ[1].

نُكتَةُ المَجازِ بالحذفِ في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُۚ﴾:

أفاد الحذفُ هنا التّعميمَ؛ لاتّقاء كـلِّ مـا يجبُ اتّقاؤه

ليس المرادُ مِن هذه الجملة ظاهرَها، بأن يجعلوا وقايةً أو حاجزًا بينهم وبين ربّهم، وإنّما المُرادُ: أن يجعلوا حاجزًا بينهم وبين محارمِه، باتّباع أوامرِه واجتناب نواهيه، أو على معنى: أن يتّقوا عذابَه، بأن يجعلوا ما يحول بينَهم وبين عذابِه، أو على معنى: أن يتجنّبوا غضبَه، ولا شكّ أنّ الخِلاف بين هذه الآراء، هو مِنَ اختلاف التّنوّعِ لا التّضادّ، إذ لا مانعَ مِنَ الحَمْل عليها جميعًا؛ فإنّهم إن تَجنَّبوا محارمَه فقد تجَنَّبوا غضبَه، وبالتّالي تجنّبوا عذابَه، ففي الجملة مجازٌ عقليٌّ، بأن يكون أمرُهم باتّقاء الله، والمرادُ محارمُه أو غضبُه أو عذابُه، كقوله تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، والمرادُ أهلُها، أو يكونُ في الجملة مجازٌ بالحَذْف.

(1) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 1/ 103.

فائدةُ التّعبير بلفظِ ﴿رَبَّكُمْ﴾ مُضافًا إلى ضمير (هم):

لفظةُ الرّبوبيّة فيها أُنسٌ وتلطّفٌ ورعايةٌ حانيَةٌ بالمخاطَبين

لا شكّ أنّ التّعرّضَ لعنوانِ الرّبوبيّة المُنبِئةِ عنِ المالكيّةِ والتّربيةِ معَ الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطَبين، إنّما هو لتأكيد الأمرِ، وتأكيدِ إيجابِ الامتثالِ به، ترهيبًا وترغيبًا، أي: احذروا عقوبةَ مالكِ أموركم ومُربّيكم[1]، ولا شكَّ بأنّ لفظةَ الرّبوبيّة تحملُ في طيّاتها معانيَ الإصلاح والعنايةِ والرّعايةِ بهم؛ لأنّ الرّبّ هو السّيّدُ والمُصْلِحُ، فإذا أضافه إلى ضميرِ (هم) ازدادتِ العنايةُ بالمخاطَبين؛ لما في إضافته إليهم مِن معاني التّشريفِ والتّكريم.

نُكْتَةُ فصلِ الجملةِ المُصَدّرةِ بالمؤكِّد ﴿إِنَّ﴾:

جاءت فاصلةُ الآيةِ جملةً تعليليّةً للأمر بالتّقوَى

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فُصلت هذه الجملةُ عن سابقتِها ولم تُعطفْ عليها، إمّا لكمال اتّصالِها بها، لكونها جملةً تعليليّةً للأمر بالتّقوى، فهي "تعليلٌ لموجبِ الأمرِ، بذكرِ بعضِ عقوباته الهائلةِ، فإنَّ ملاحظةَ عِظَمِها وهولِها، وفظاعةِ ما هيَ مِن مباديهِ ومقدّماته مِنَ الأحوالِ والأهوالِ التّي لا مَلْجأ منها سوى التَّدرّعِ بلباسِ التَّقوى، ممّا يوجبُ مزيدَ الاعتناءِ، بملابستِه وملازمتِه لا محالةَ"[2]، وإمّا أن تكون واقعةً موقعَ الاستئنافِ البيانيِّ، جوابًا عن سؤالٍ مقدّر: لماذا نتّقي ربَّنا؟.

دلالةُ تتابعِ المؤكّدات في السّياقِ:

مِن أعظمِ ما أنكرَ كفرةُ العِباد حقيقةُ البعثِ والمعادِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، أُكّدت هذه الجملةُ بـ ﴿إِنَّ﴾، والجملةِ الاسميّةِ؛ وذلك لأنّ أمرَ السّاعة مِنَ الأُمور الغَيبيّةِ الّتي يقع فيها التّكذيبُ، لاسيّما وأنّ السّورةَ مكّيّةٌ وتُخاطبُ كفّارَ مكّة الّذين أنكروا أمرَ البعث، فجاءتِ المُؤكّدات في مكانها الأَلْيَقِ بها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 91.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 91.

دلالةُ لفظِ ﴿زَلۡزَلَةَ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

يُستَعارُ لفظُ (الزّلزلة) لاضطرابِ القلوبِ عند عظائمِ الخُطوبِ

يمكنُ أن تكون الزّلزلةُ على حقيقتها، فتكون عند إشرافِ العالَم الدّنيويِّ على الهلاك، ويمكنُ أن تكون مَجازًا عنِ الأهوال والمُفْزِعات الّتي تحصلُ يومَ القيامة، فتُستَعار الزّلزلةُ لاضطراب القلوبِ، بجامع التّحريكِ والاهتزازِ عند الحدث العظيمِ[1].

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾:

السّاعةُ نهايةٌ تنقلبُ بها الظّواهرُ الكونيّةُ وتبدأ بعدَها الحياةُ الأخرويّةُ

التّعريفُ هنا للعهدِ الذّهنيِّ، أيّ: السّاعةُ الّتي تعرفونَها، والأصلُ في معناها: الجُزءُ مِنَ الوقت في اللّيل أوِ النّهار، وعُلِمَ مِن استعمالِ القرآن لها، أنّها تدلُّ على الوقت الّذي تَفنى فيه الدّنيا[2]، والسّاعةُ نهايةُ الحياة الدّنيا، حيثُ يصيبُ السّماءَ الانفطارُ، وتُكَوّرُ الشّمسُ، وينخسفُ القمرُ، وتنتثرُ النّجومُ والكواكب، ويكونُ مِنَ البلايا والرّزايا ما تنصدعُ له القلوبُ، وتفزعُ منه النّفوسُ، ويشيبُ مِن هوله الوِلْدانُ، ولا ينفعُ حينَئِذٍ سلطانٌ، ولا يُغني عنِ المَرءِ قوّةٌ ولا عنفوانٌ.

بلاغةُ المَجاز في إضافة الزّلزلةِ إلى السّاعة:

إضافةُ المصدرِ إلى فاعلِه أو مفعولِه مِن فصيحِ البيانِ

لا تخلو السّاعَةُ مِن أن تكون على تقدير الفاعلةِ للزّلزلة، كأنّها هي الّتي تُزَلزِلُ الأشياءَ، على طريق المَجازِ الحُكميّ، فتكون الزّلزلةُ مصدرًا مضافًا إلى فاعله، أو على تقدير المفعول فيها، على طريقة الاتّساعِ في الظّرف، وإجرائِه مجرى المفعولِ به، كقوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33][3]، فعلى المعنى الأوّل: فالسّاعةُ هي الّتي تُزَلزِل الأرضَ أوِ النّاسَ، على سبيل المجازِ العقليِّ الحُكميِّ، وعلى المعنى الثّاني: تكونُ الزّلزلةُ قد أُضيفت إلى مفعولِها، وهو السّاعةُ، على اعتبار أنّها زلزلتِ السّاعةَ، فالسّاعةُ مفعولٌ به، وهو مِنَ المجاز

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 187.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 141.

العقليّ أيضًا؛ لأنّ السّاعةَ لا تُزلزل، إنّما يُزَلْزَل النّاسُ والأرضُ فيها، ويمكنُ أن تكون السّاعةُ مفعولًا فيه، على معنى أنّ الزّلزلة تحدثُ فيها، فهي ظرفُ زمانِها[1].

نُكْتَةُ تنكير لفظِ ﴿شَيْءٌ﴾:

أمرُ الزّلزلة يوقِعُ في النّفوس خوفًا وترقُّبًا لأهوالِها وذُعرًا

أفاد التّنكيرُ هنا التّهويلَ؛ لتوغّلِه في ذلك الوصف، أي: زلزلةٌ لا يُعرفُ كُنْهُها، بأنّها شيءٌ عظيمٌ[2]، وقد جاءت هذه اللّفظةُ في موضعٍ لا تجدُ فيه كلمةً أُخرى تَسُدّ مكانَها، وكان الشّيخُ عبدُ القاهر الجُرجانيُّ قد تحدّثَ عن لفظةِ ﴿شَيْءٌ﴾، في أثناء حديثِه عن تحقيق القولِ في البلاغةِ والفصاحةِ، فقال: "إنّ الألفاظَ لا تتفاضلُ من حيثُ هي ألفاظٌ مُجرّدةٌ، ولا من حيثُ هي كَلِمٌ مُفْرَدةٌ، وإنّ الفضيلةَ وخلافَها، في ملاءمةِ معنى اللّفظةِ لمعنى الّتي تليها، وما أشبهَ ذلك، ممّا لا تعلّقَ له بصريح اللّفظِ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في وصف الشّيءِ بـ ﴿عَظِيمٌ﴾:

وصفُ الشّيءِ بالعَظَمة تهويلٌ لزلزلةِ السّاعةِ المُعْلَمَةِ

المعنى المحوريُّ لمادّةِ (عظم): غِلَظُ جَسامةٍ أو صَلابة، كما في عَظَمة السّاعد واللّسانِ، ولعلّه نظرٌ في تسميّة العَظْم إلى أنّه يُبنى عليه اللَّحْمُ، أي: العظام، كما قال تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾، فيكون اللّفظُ بمعنى اسم الفاعلِ، أو سُمّي لصلابته الّتي تجعلُه لا ينقصُ بالغمز، ثمّ استُعملت في الضّخامةِ المعنويّةِ، من عِظَم الشّأن والأمر، فهو بمعنى الجسامة والضّخامةِ الحسّيّةِ أو المعنويّةِ قدرًا أو أثرًا، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النّمل: 23]، ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطّلاق: 5]، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحجّ: 30][4]، وعلى هذا، فالعظيم هنا استعارةٌ تصريحيّةٌ للشّيء القويِّ الشّديدِ في الشّرّ[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 106 - 107.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 187.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 40 - 41.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (عظم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 188.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزّلزلةُ والرّجفةُ:

الرّجفةُ أشدُّ ما يكونُ مِنَ الزّلزلة وكلاهما لفظٌ قرآنيٌّ أصيلٌ

الرّجفةُ الزّلزلةُ العظيمةُ، ولهذا يقال: زُلزِلتِ الأرضُ زلزلةً خفيفةً، ولا يقال رجفت إلّا إذا زُلزِلَت زلزلةً شديدةً، وسُمّيت زلزلةُ السّاعة رجفةً لذلك، ومنه الإرجافُ، وهو الإخبار باضطراب أمرِ الرّجلِ، ورجفَ الشّيءُ إذا اضطرب، يقال: رجفت منه، إذا تقلْقَلَتْ[1].

(1) العسكريّ، الفروق في اللّغة، ص: 249.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»